

عندما تتصادم العوالم
المحاضرة ٣: الهدف من الألم
أ.ر. سي. سرول

في أعقاب إعلان أميركا الحرب ضدّ الإزهاب، رأينا أنّ الحروب ناتجة في نهاية المطاف عن صراع الأفكار، وأنّ الحرب تبدأ في الذهن، ويندلع القتال حين يتوصل الناس إلى استنتاجات مختلفة حول كيفية العيش وكيفية العمل. كما شهدنا أيضاً اضمحلال الأهمية الرئيسية لمفهوم العناية الإلهية حتى في الكنيسة المسيحية في يومنا. ولاحظت، كما تصف وسائل الإعلام أحداث ١١ سبتمبر في العام ٢٠٠١، أنه يتم استخدام كلمات مختلفة لوصف إشكاليات ذلك اليوم؛ كلمات مثل "كارثة" أو "بليّة". وربّما إحدى الكلمات التي أسمعها أكثر من أيّ كلمة أخرى هي كلمة "مأساة".

لكن ما أفلقني نوعاً ما في الاستعمال العام للمفردات، هو أنّي أسمع دائماً هذه العبارة مراراً وتكراراً التي تصف هذه الأحداث، وهذه العبارة هي "مأساة لا معنى لها". إن كان لديّ الوقت للدخول في تحليل تفنيّي شامل لهذه الكلمات بالتزامن مع بعضها البعض، فأظن أنّ بإمكانني أن أبرهن لكم حتى تصدقوا أنّ عبارة "مأساة لا معنى لها" هي اجتناع تقيضين. فلنكنّ يتّمسّ تحديد أمر ما في نهاية المطاف على أنه مأساويّ، لا بدّ من وجود معيار من الصلاح لكي يتمّ اعتبار أمر ما مأساوياً مقابل ذلك. وإن حدثت الأمور بطريقة لا معنى لها، فلا يمكن أن يشكّل أيّ أمر مأساة أو بركة، بل سيكون ببساطة حدثاً عديم المعنى. أيّ إن كلمة "مأساة" تقتضي ضمناً نوعاً من الترتيب والهدف في العالم. لكن ما يشغلني هنا هو أنّ فكرة "المأساة عديمة المعنى" تمثّل وجهة نظر عن الحياة متضاربة تماماً مع الفكر المسيحيّ، لأنّها تفترض حدوث أمر ما من دون هدف أو معنى. وإن كان الربّ هو الله، وإن كان الله إله العناية، وإن كان الله سيّداً، فلا يمكن لأيّ أمر يحدث أن يكون عديم المعنى في نهاية المطاف.

أذكر حين كنت في الجامعة، وكان عليّ أن أتبع دروساً تمهيدية في مختبر مادة الأحياء. في الواقع، كانت هذه تُدعى "الأحياء البسيطة"، لأنّها كانت دروس أحياء موجهة للتخصّصات غير العلمية. وربّما الأمر الوحيد الذي أتذكره من ذلك الصّف هو المحاضرة الأولى التي أعطاها الأستاذ. وتذكروا أنّ صفوف الأحياء البسيطة كانت تضمّ بمعظمها طلبّة مبتدئين، أيّ أنّ ٩٩٪ من طلبّة الصّف كانوا مبتدئين، بينما كنت طالباً على وشك التخرّج. كنت طالباً على وشك التخرّج من قسم الفلسفة، واضطرتُّ لتأجيل أخذ هذه المادة، لأنّي كنت في صراع مع اليونانية في السنة الأولى من الجامعة، حيث كنت قد أنهيت ثلاث سنوات جامعية في مجال البحث والاستقصاء الفلسفيّ. والأمر الذي استرعى ذروة اهتمامي في تلك المحاضرة الإبتتاحية هو قول الأستاذ "كعلماء يستكشفون عالم الأحياء،

الأمر الوحيد الذي لا يُبَيَّرُ اهْتِمَامًا هُوَ عِلْمُ الغَائِيَّةِ (teleology) - والكَلِمَةُ تَأْتِي مِنَ اللُّغَةِ اليُونَانِيَّةِ "تيلوس" (Telos)، وَمَعْنَاهَا "غَايَةٌ، أَوْ هَدَفٌ أَوْ غَرَضٌ".

أَحَدُ الأَبْحَاثِ العَظِيمَةِ فِي تَارِيخِ الفَلَسَفَةِ هُوَ بَحْثٌ حَوْلَ مَعْنَى الحَيَاةِ وَالوُجُودِ البَشَرِيِّ وَالْهَدَفِ مِنْهُمَا، وَلَيْسَ الوُجُودَ البَشَرِيَّ فَحَسْبُ، بَلِ الوُجُودَ الحَيَوَانِيَّ أَيْضًا، وَوُجُودَ الأَزْهَارِ، وَوُجُودَ الصُّخُورِ وَكُلِّ شَيْءٍ آخَرَ. أَيْ أَنَّ الفَلَسَفَةَ تُعْنَى بِشَكْلِ عَمِيقٍ بِأَسْئَلَةٍ حَوْلَ الهَدَفِ وَالْمَعْنَى. فَدَخَلَتْ إِلَى صَفِّ المُبْتَدِئِينَ فِي مَادَّةِ الأَحْيَاءِ، وَقِيلَ لِي فِي البِدَايَةِ لَا يُسْمَحُ بِالتَّطَرُّقِ إِلَى الأَسْئَلَةِ المُتَعَلِّقَةِ بِعِلْمِ الغَائِيَّةِ. وَمَا سَمِعْتُ الأُسْتَاذَ يَقُولُهُ هُوَ أَنَّ مَا سَتَتَعَلَّمُونَهُ مِنَ الآنَ فَصَاعِدًا فِي الحِزْبِ المُتَبَقِّيِّ مِنْ هَذَا المُقَرَّرِ التَّعْلِيمِيِّ سَيَكُونُ بِلا مَعْنَى، لَكِنَّ مَا كَانَ الأُسْتَاذُ يَقُولُهُ فِعْلًا هُوَ أَنَّنَا سَنَحْضُرُ بِحِثْنَا بِالأَسْئَلَةِ الأَتِيَّةِ، "كَيْفَ وَمَاذَا وَأَيْنَ"، لَكِنَّ السُّؤَالَ الوَحِيدَ الَّذِي يُمْنَعُ طَرْحُهُ هُوَ "لِمَاذَا؟". وَلَكِنَّ حِينَ نَرْجِعُ إِلَى أَحْدَاثِ ١١ مِنْ سِبْتَمْبَرِ عَامِ ٢٠٠١، هَذَا هُوَ السُّؤَالَ الَّذِي يَشْغَلُ عُقُولَ الجَمِيعِ. "لِمَاذَا حَدَثَ ذَلِكَ؟" لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ مُؤْمِنًا، وَخُصُوصًا مُؤْمِنًا مَسِيحِيًّا، فَهُوَ يَسْأَلُ عَن سَبَبِ حُدُوثِ الأَمْرِ. السُّؤَالَ هُوَ "كَيْفَ سَمَحَ اللهُ بِحُدُوثِ هَذَا الأَمْرِ؟" نَحْنُ نَسْأَلُ "لِمَاذَا حَدَثَ ذَلِكَ يَا رَبُّ؟" لِأَنَّ المَسِيحِيِّينَ لَا يَتَقَبَّلُونَ وَفُوعَ أَحْدَاثِ بلا مَعْنَى. لِأَنَّ فِي قَلْبِ الحَيَاةِ المَسِيحِيَّةِ وَوُجْهَةَ نَظَرِهَا عَنِ الحَيَاةِ، كُلُّ حَدَثٍ فِي التَّارِيخِ لَدَيْهِ هَدَفٌ فِي فِكْرِ اللهِ القَدِيرِ. اللهُ هُوَ إِلَهُ الأَهْدَافِ، وَلَيْسَ اللهُ فَوْضُويًّا. اللهُ لَا يَلْعَبُ التَّرْدَ كَمَا عَلَّقَ أَلْبِرْتُ أَيْنِشتاينَ ذَاتَ مَرَّةٍ. يُوجَدُ هَدَفٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ مَا يُعْرَفُ بِالمَأسَاةِ. أَكْرَرُ، مَا سَبَبُ هَذِهِ المَأسَاةِ؟

أَحَدُ الأُمُورِ الَّتِي حَدَثَتْ فِي الأَيَّامِ الأُولَى مِنْ خَوَاطِرَ حَوْلَ أَحْدَاثِ ١١ مِنْ سِبْتَمْبَرِ، كَانَ صُدُورَ تَعْلِيقاتٍ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الوُعَاظِ المَعْرُوفِينَ، لَا سِيَّمَا جِيرِي فالويل، بِمُؤَازَرَةٍ بَاتٍ رُوبَرْتْسُونِ. أَبْدَى فالويل مَلاحِظَةً تُفِيدُ بِأَنَّ سَبَبَ هَذِهِ المَأسَاةِ هُوَ إنْزَالُ اللهِ دِينُونْتَهُ عَلَى أَمْرِيكَا، نَتِيجَةَ فَجُورِ أَمْرِيكَا وَالإجْهَاضِ وَدَمَارِ العَائِلَةِ البَشَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ المَسَائِلِ الأَخْلَاقِيَّةِ فِي أَيَّامِنَا. أَدَّى ذَلِكَ إِلَى خَلْقِ عَاصِفَةٍ نَارِيَّةٍ مِنَ الجَدَلِ وَرُذُودِ فِعْلِ سَلْبِيَّةٍ عَنيفَةٍ، حَتَّى إِنْ المُعْلِقِينَ المَسِيحِيِّينَ كَانُوا مُعْبَرِينَ فِي نَقْدِهِمْ لِهَذَا التَّقْيِيمِ الَّذِي قَدَّمَهُ جِيرِي فالويل، لِدَرَجَةٍ أَنَّ فالويل تَرَاجَعَ عَلَنًا عَن تَعْلِيْقِهِ الَّذِي شَكَلَ فِعْلًا حُكْمًا مُتَسَرِّعًا.

وَالآنَ دَعُونِي أَقُولُ أَمْرًا. إِنْ سَأَلْتَنِي أَحَدُهُمْ "لِمَاذَا حَدَثَ ذَلِكَ؟ مَاذَا كَانَ هَدَفُ اللهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ؟" فَإِنَّ الجَوَابَ الصَّادِقَ الوَحِيدَ الَّذِي يُمَكِّنُنِي تَفْدِيمُهُ هُوَ بِبَسَاطَةٍ "لَسْتُ أَدْرِي". لَا يُمَكِّنُنِي قِرَاءَةُ أَفْكَارِ اللهِ. إِنْ سَأَلْتَنِي "هَلْ كَانَ لِلَّهِ عَلاَقَةٌ بِالأَمْرِ؟" أَجَلْ، لِأَنِّي أُوْمِنُ بِعَقِيدَةِ العِنَايَةِ الإِلَهِيَّةِ. وَأَنَا مُفْتِنِعٌ بِأَنَّهُ كَانَ لِلَّهِ عَلاَقَةٌ بِهَذَا الأَمْرِ، وَبِأَنَّ الأَمْرَ تَمَّ وَفَقَى مَقَاصِدِ اللهِ. لَكِنَّ مَاذَا كَانَ الهَدَفُ المُحَدَّدُ مِنْ مُشَارَكَةِ اللهِ فِي الأَمْرِ؟ لَيْسَ لَدَيَّ أَدْنَى فِكْرَةٍ.

إِذَا، لَنْ أُنْتَقَلَ سَرِيعًا إِلَى الْإِسْتِنْتِاجِ أَنْ هَدَفَ اللَّهُ كَانَ إِنْزَالَ دَيْنُونَةٍ عَلَى أَمْرِيكَ. لَكِنَّ أَحَدَ الْأُمُورِ الَّتِي تُزَعِّجُنِي هُوَ مَدَى ثِقَةِ الْمُعَلِّقِينَ مِنْ أَنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ عَمَلٌ دَيْنُونَةٍ. دَعُونِي أَكْرُرُ مَا قُلْتُ، وَلَيْكُنْ كَلَامِي وَاضِحًا. لَا أَعْلَمُ مَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَمَلٌ دَيْنُونَةٍ، لَكِنْ لَا يَسْعُنِي التَّفَكِيرُ فِي أَيِّ أَمْرٍ فِي وُجْهِهِ النَّظَرِ الْمَسِيحِيَّةِ عَنِ الْحَيَاةِ يَسْتَبْعِدُ احْتِمَالًا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَمَلٌ دَيْنُونَةٍ، إِنْ أَدْرَكْنَا أَنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ الْبَلَايَا بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ عَلَى الْأَمَمِ كَعَمَلِ دَيْنُونَةٍ. لَكِنَّ الصِّرَاعَ مَعَ هَذَا السُّؤَالِ لَيْسَ فَقَطْ فِي إِطَارِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ الْمُعَيَّنِ أَوْ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالذَّاتِ، لَكِنْ نَظْرًا لِلْمَآسِي الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ عَبْرَ الْعُصُورِ، وَيَوْمِيًّا فِي هَذَا الْعَالَمِ، يُطْرَحُ هَذَا السُّؤَالُ "لِمَاذَا؟"

دَعُونِي أَلْفِتْ انْتِبَاهَكُمْ، بِإِجَازٍ عَلَى الْأَقْلِ، إِلَى مُنَاقَشَةٍ حَوْلَ هَذَا التَّوَجُّعِ مِنَ الْأَسْئَلَةِ بَيْنَ يَسُوعَ وَتَلَامِيذِهِ. فِي الْأَصْحَاحِ ٩ مِنْ الْإِنْجِيلِ يُوجِّهُنَا نَفْرًا مِنَ الْكَلِمَاتِ الْآتِيَةِ: "وَفِيمَا هُوَ (أَيُّ يَسُوعَ) مُجْتَازًا رَأَى إِنْسَانًا أَعْمَى مُنْذُ وِلَادَتِهِ". دَعُونِي أَتَوَقَّفُ هُنَا قَلِيلًا. أَنْتِ أُمُّ تَحْمِيلِينَ طِفْلَكَ حَتَّى الْأَوَانِ الطَّبِيعِيِّ لِلْمَخَاضِ، وَأَنْتِ مُتَحَمِّسَةٌ لَوِلَادَةِ هَذَا الطِّفْلِ. أَنْتِ هُوَ الْأَبُ، وَحِينَ يُولَدُ الطِّفْلُ، سُرْعَانَ مَا تَكْتَشِفُ أَنَّهُ أَعْمَى. قِلَّةٌ هُمْ الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُونَ ذَلِكَ بِفَرَحٍ، وَقِلَّةٌ هُمْ الْأَشْخَاصُ الَّذِينَ يَعْتَبِرُونَ هَذَا الْإِحْتِبَارَ افْتِقَادًا لِلَّهِ بِالْبَرَكَةِ. بِاخْتِصَارٍ، إِنَّ الْوَالِدِينَ، وَلِشِدَّةِ حَيَبَتِهِمَا، اعْتَبَرَا ذَلِكَ الْحَدِيثَ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا وَإِلَى طِفْلِهِمَا عَلَى الْأَرْجَحِ مَأْسَاءَ شَخْصِيَّةٍ. وَبِالطَّبَعِ، يَمِيلُ النَّاسُ إِلَى طَرْحِ سُّؤَالٍ: "يَا رَبُّ، لِمَاذَا سَمَحْتَ بِمُحْدُوثِ ذَلِكَ؟"

وَالآنَ صَادَفَ التَّلَامِيذُ إِنْسَانًا بِالْعَمَى، وَعَلِمُوا أَنَّهُ أَعْمَى مُنْذُ الْوِلَادَةِ وَأَنَّهُ عَانَى مِنَ الْعَمَى التَّامِّ لِسِنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ. إِنْ كَانَ يُوجَدُ أَمْرٌ يَبْدُو عَدِيمَ الْمَعْنَى فَهُوَ اخْتِبَارُ الرَّجُلِ الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى. إِذَا، جَاؤُوا إِلَى يَسُوعَ وَسَأَلُوهُ "يَا مُعَلِّمُ، مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟" مَنْ أَخْطَأَ الرَّجُلُ الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى، أَمْ أَبَوَاهُ؟ مَنْ بَيْنَ هَؤُلَاءِ؟

هُنَا أَدْرِكُ يَسُوعَ فَوْرًا أَنَّ السُّؤَالَ الْمَطْرُوحَ عَلَيْهِ يَنْطَوِي عَلَى مُعَاظَةِ مَنْطِقِيَّةٍ. وَلِهَذَا الْعَمَلِيَّةِ تَسْمِيَةُ تَقْنِيَّةٍ: إِنَّهَا تُدْعَى "مُعَاظَةُ الْمُعْضَلَةِ الْكَاذِبَةِ"، أَوْ تُدْعَى أَحْيَانًا مُعَاظَةُ أَمْرٍ مِنْ اثْنَيْنِ. أَيُّ حِينٍ يَحْضُرُ أَحَدُهُمُ الْأَمْرَ بِاخْتِمَالَيْنِ اثْنَيْنِ فَقَطْ، فِي حِينٍ أَنَّهُ رُبَّمَا تُوْجَدُ احْتِمَالَاتٌ أُخْرَى. فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ، يُمَكِّنُ لِلِاحْتِمَالَاتِ أَنْ تَكُونَ مُحْضُورَةً بِاخْتِمَالَيْنِ، شَرْعِيًّا وَمَنْطِقِيًّا – إِمَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مُوجُودًا، أَوْ أَلَّا يَكُونَ مُوجُودًا. لَا يُوجَدُ "حَلٌّ وَسَطٌ" فِي الْأَمْرِ، لَا يُوجَدُ احْتِمَالٌ ثَالِثٌ. وَاحِدٌ مِنَ الْأَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَمُوتَ أَوْ أَلَّا تَمُوتَ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ احْتِمَالٌ آخَرَ. لَكِنْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَسْرَعُ التَّلَامِيذُ فِي الْحُكْمِ وَحَصَرُوا الْإِحْتِمَالَاتِ بِاثْنَيْنِ، بَيْنَمَا كَانَ يُوجَدُ احْتِمَالٌ ثَالِثٌ لَمْ يَفَكَّرُوا فِيهِ. وَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعَ السُّؤَالَ يُطْرَحُ بِهِذِهِ الطَّرِيقَةَ – "يَا مُعَلِّمُ، مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟" – بِمَاذَا أَجَابَ يَسُوعُ؟

لَا هَذَا أَخْطَأَ وَلَا أَبَوَاهُ، لَكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ. يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارًا. يَأْتِي لَيْلٌ حِينٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ. قَالَ هَذَا وَتَقَلَّ عَلَى

الأرض وصنع من التُّفْلِ طِينًا وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنِي الْأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: "أَذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بَرَكَةِ سِلْوَامٍ" الَّذِي تَفْسِيرُهُ: مُرْسَلٌ، فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بِصِيرًا.

وَتَبِعَتْ ذَلِكَ الْمَوَاجَهَةُ بَيْنَ يَسُوعَ وَالْمَسُؤُولِينَ، الَّذِينَ ذَهَلُوا بِتِلْكَ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي صَنَعَهَا الْمَسِيحُ. لَكِنَّ يَسُوعَ قَالَ "لَا يَعُودُ السَّبَبُ إِلَى خَطِيئَةِ الْإِنْسَانِ، وَلَا يَعُودُ إِلَى خَطِيئَةِ وَالِدَيْهِ، وَإِنَّمَا لِيْكَ يَظْهَرُ مَلَكَوْتُ اللَّهِ. فَصَدَّ اللَّهُ أَنْ يُظْهَرَ هُوِيَّتِي مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ". وَحَتَّى هَذَا الْيَوْمِ، أَيُّ بَعْدَ مُضِيِّ ٢٠٠٠ سَنَةٍ، هَذَا الرَّجُلُ الْأَعْمَى الَّذِي يُفْتَرَضُ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ الْيَوْمِ، وَالَّذِي انْضَمَّ إِلَيْهِ أَوْلَادُهُ وَأَحْفَادُهُ، جَالِسٌ فِي السَّمَاءِ يَتَكَلَّمُ عَنْ كَيْفِيَّةِ اسْتِخْدَامِ اللَّهِ عَمَاهُ لِإِظْهَارِ هُوِيَّةِ الْمَسِيحِ، وَكَتَشَفَ أَنَّ حَالَتَهُ الْمَأسَاوِيَّةَ لَمْ تَكُنْ عَدِيمَةَ الْمَعْنَى إِطْلَاقًا، بَلْ كَانَ يُوجَدُ هَدَفٌ إِلَهِيٌّ مِنْهَا.

نَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى الْأَمْرِ وَنَرَى أَنَّ التَّلَامِيذَ ارْتَكَبُوا خَطَأً، الْخَطَأَ نَفْسَهُ الَّذِي ارْتَكَبَهُ جِيرِي فَالْوَيْلُ. لَقَدْ تَسَرَّعُوا فِي الْحُكْمِ، وَافْتَرَضُوا أَنَّ التَّفْسِيرَ الْوَحِيدَ الْمُمْكِنَ لِعَمَى هَذَا الرَّجُلِ طَوَالَ حَيَاتِهِ هُوَ خَطِيئَةُ ارْتَكَبَهَا الرَّجُلُ أَوْ وَالِدَاهُ، مِثْلَمَا افْتَرَضَ فَالْوَيْلُ أَنَّ أَحْدَاثَ ١١ مِنْ سِبْتَمْبَرِ الْمَأسَاوِيَّةِ كَانَتْ إِنْزَالُ اللَّهِ دَيْنُونَتَهُ عَلَى أُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ. كَانَ التَّلَامِيذُ عَلَى خَطَأٍ، لَكِنَّ دَعْوَانَا لَا نَعْتَبِرُهُمْ أَغْيِيَاءَ. يَفْرَأُ الْبَعْضُ هَذَا النَّصَّ وَيُفَكِّرُونَ: مَا خَطْبُ هَؤُلَاءِ التَّلَامِيذِ حَتَّى فَكَّرُوا أَنَّ اللَّهَ سَمَحَ بِأَنْ يُوَلِّدَ الطِّفْلُ أَعْمَى بِسَبَبِ خَطِيئَةِ وَالِدَيْهِ. أَوْ أَنَّ الرَّجُلَ نَفْسَهُ أُصِيبَ بِالْعَمَى بِسَبَبِ خَطِيئَةِ ارْتَكَبَهَا. لِمَاذَا قَامُوا بِتِلْكَ الْإِفْتِرَاضَاتِ؟ كَانَ هَؤُلَاءِ تَلَامِيذَ يَسُوعَ، وَارْتَادُوا أَعْظَمَ مَدْرَسَةَ لَاهُوتٍ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ، وَتَدَرَّبُوا عَلَى يَدِ اللَّهِ الْكَلِمَةَ نَفْسِهِ. مَا الَّذِي قَدْ جَعَلَهُمْ يَرْتَكِبُونَ هَذَا الْخَطَأَ الْفَادِحَ، مُفْتَرِضِينَ وَجُودَ عِلَاقَةٍ بَيْنَ الْخَطِيئَةِ وَالْأَلَمِ وَالْمُعَانَاةِ؟ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ الْإِلَهِيَّ، وَأَنَّ السَّبَبَ الْأَسَاسِيَّ لِلْمَأسَاةِ، وَالسَّبَبَ الْأَسَاسِيَّ لِلتَّأَلَمِ فِي هَذَا الْعَالَمِ هُوَ الْخَطِيئَةُ. تَخَلَّصَ مِنَ الْخَطِيئَةِ فَتَتَخَلَّصَ مِنَ الْأَلَمِ وَالْمُعَانَاةِ. لَا وَجُودَ لِلْخَطِيئَةِ فِي السَّمَاءِ. وَلَا وَجُودَ لِلْمَأسَاةِ فِي السَّمَاءِ. وَلَا وَجُودَ لِلْمَوْتِ فِي السَّمَاءِ. وَلَا وَجُودَ لِلْأَلَمِ فِي السَّمَاءِ.

إِذَا، أَدْرَكَ التَّلَامِيذُ وَجُودَ رَابِطٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ بَيْنَ الْخَطِيئَةِ وَالْأَلَمِ وَالْمُعَانَاةِ، وَبَيْنَ الشَّرِّ وَالْمَأسَاةِ. لَكِنَّهُمْ أَخْطَأُوا بِإِفْتِرَاضِهِمْ أَنَّ السَّبَبَ الْمُحَدَّدَ لِهَذِهِ الْمَأسَاةِ الْمُحَدَّدَةِ هُوَ خَطِيئَةُ مُحَدَّدَةٌ ارْتَكَبَهَا شَخْصٌ مُحَدَّدٌ. لَوْ أَنَّهُمْ قَرَوْا سَفَرِ أَيُّوبَ بِإِمْعَانٍ لَعَرَفُوا أَكْثَرَ. تَذَكَّرُوا بُؤْسَ أَيُّوبَ، وَكَيْفَ تَمَّ تَصْوِيرُهُ لَنَا فِي سَفَرِ الْحِكْمَةِ الْأَدْبِيِّ الْقَائِبِ الرَّائِعِ الَّذِي يَبْدَأُ كَالْمَسْرَحِيَّةِ مَعَ الْفَضْلِ الْأَوَّلِ وَالْمَشْهَدِ الْأَوَّلِ، حَيْثُ مَثَلَ الشَّيْطَانُ أَمَامَ اللَّهِ بَعْدَ جَوْلَانِهِ فِي الْأَرْضِ. وَبَدَأَ يَسْتَهْزِئُ بِاللَّهِ. قَالَ لَهُ "انْظُرْ إِلَى جَمِيعِ هَؤُلَاءِ الْبَشَرِ عَلَى الْأَرْضِ، إِنَّهُمْ يَخْدُمُونَنِي، أَنَا رَبِّيسُ هَذَا الْعَالَمِ، لَا أَحَدٌ يَلْتَفِتُ إِلَيْكَ". قَالَ اللَّهُ: "هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟" فَاسْتَهْزَأَ الشَّيْطَانُ بِاللَّهِ وَصَحِكَ قَائِلًا: "بِالطَّبَعِ سَيَخْدُمُكَ أَيُّوبُ، وَلَمْ لَا؟ فَلَقَدْ سَيَّجَتْ مِنْ حَوْلِهِ وَجَعَلَتْهُ أَعْنَى رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ. كُلُّ مَا فَعَلْتَهُ هُوَ الْفَيْضُ بِالْبَرَكَةِ تَلَوَّ الْأُخْرَى عَلَيْهِ. فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ يُؤْكَلُ الْكَيْفُ. وَالآنَ، ارْفَعْ ذَلِكَ السِّيَاحَ وَدَعْنِي أَهَاجِمُهُ، وَسَتَسْمَعُ أَيُّوبَ يَلْعَنُ اللَّهَ". فَقَالَ اللَّهُ "حَسَنًا،

بَاشِرُ فِعْلَتِكَ". وَأَطْلَقَ الْحَجِيمُ كُلَّهُ عِنَانَهُ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الْبَارِّ الَّذِي خَسِرَ كُلَّ شَيْءٍ وَوَقَعَ فِي الْبُؤْسِ الْمُدْقَعِ، وَهَذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى كَوْمَةِ رَمَادٍ حِينَ جَاءَتْ زَوْجَتُهُ إِلَيْهِ قَائِلَةً: "يَا أَيُّوبُ، أَلَعَنَ اللَّهُ وَمُتَّ، أَحْسِمُ أَمْرَكَ". فَقَالَ أَيُّوبُ بِكُلِّ تَمَاسُكٍ: "هُوَذَا يَفْتُلْنِي. لَا أَنْتَظِرُ شَيْئًا".

لَكِنَّ أَيُّوبَ لَا يَعْرِفُ سَبَبَ وَقُوعِهِ فِي الْبُؤْسِ وَالْأَلَمِ الْقَاسِيِ وَالْمُعَانَاةِ. وَجَاءَ إِلَيْهِ أَصْدِقَاؤُهُ مُسَلِّحِينَ بِمَفْهُومِ ارْتِبَاطِ الْخَطِيئَةِ بِالْأَلَمِ، وَجَاؤُوا إِلَيْهِ قَائِلِينَ: "يَا أَيُّوبُ، أَيُّهَا الْمَسْكِينُ، أَيُّ خَطِيئَةٍ سَرِيَّةٍ ارْتَكَبْتَ؟ لَا بُدَّ مِنْ أَنَّكَ أَسْوَأُ خَاطِئٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، بِمَا أَنَّكَ أَسْوَأُ مُتَأَلِّمٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ. لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُعَادَلَةٍ بَيْنَ خَطِيئَتِكَ وَدُنْبِكَ". وَكُتِبَ سِفْرُ أَيُّوبَ بِكَامِلِهِ لِدَحْضِ ذَلِكَ الْإِسْتِنْتِاجِ وَذَلِكَ الْإِفْتِرَاضِ. حَيْثُ إِنَّ الْهَدَفَ مِنْ مُعَانَاةِ أَيُّوبَ لَمْ يَكُنْ مُرْتَبِطًا إِطْلَاقًا بِدُنْبِهِ. لَكِنَّ أَصْدِقَاءَهُ الَّذِينَ قَامُوا بِذَلِكَ الْإِفْتِرَاضِ فَعَلُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّهُ فِي بَعْضِ الْمَرَاحِلِ فِي التَّارِيخِ يُنْزِلُ اللَّهُ الدَّيْنُونَةَ عَلَى الشَّعْبِ، وَيَضْرِبُهُمْ بِالْأَلَمِ وَالْمُعَانَاةِ لِتَنْفِيذِ عَدَالَتِهِ.

انْبَطَحَ دَاوُدُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَبِسَ مِسْحًا وَرَمَادًا، وَصَلَّى أَنْ يُنَجِّيَ اللَّهُ حَيَاةَ الطِّفْلِ الْمَوْلُودِ مِنْ بَشْشَبَعِ، بَعْدَ أَنْ أَبْلَغَ النَّبِيُّ نَاتَانُ دَاوُدَ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَأْخُذُ حَيَاةَ ذَلِكَ الطِّفْلِ لِتَنْفِيذِ دَيْنُونَتِهِ. وَظَلَّ دَاوُدُ يَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ طَوَالَ أُسْبُوعٍ لِكَيْ يُنَجِّيَ الطِّفْلَ. لَكِنَّ اللَّهَ أَخَذَ حَيَاةَ الطِّفْلِ تَنْفِيذًا لِدَيْنُونَتِهِ عَلَى دَاوُدَ. لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تُمَضِي عَشْرَ دَقَائِقٍ فِي قِرَاءَةِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ مِنْ دُونَ أَنْ تَرَى إِلَهَ إِسْرَائِيلَ يُنْزِلُ الدَّيْنُونَةَ عَلَى الشَّعْبِ بِسَبَبِ الْخَطِيئَةِ. الْخَطَأُ الَّذِي ارْتَكَبَهُ التَّلَامِيذُ، وَالْخَطَأُ الَّذِي ارْتَكَبَهُ أَصْدِقَاءُ أَيُّوبَ هُوَ الْإِفْتِرَاضُ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ تُوجَدُ عِلَاقَةٌ مُبَاشِرَةٌ بَيْنَ الْخَطِيئَةِ وَالدَّيْنُونَةِ.

مَاذَا كَانَتْ خَطِيئَةُ بُولَسَ الَّتِي جَعَلَتْ لَهُ شَوْكَةً فِي الْجَسَدِ؟ أُعْطِيَتْ لَهُ تِلْكَ الشَّوْكَةُ لِأَجْلِ تَقْدِيرِهِ، لِإِظْهَارِ صِلَاحِ اللَّهِ، لِجَعْلِ بُولَسَ يَعْتَمِدُ بِاسْتِمْرَارٍ عَلَى النِّعْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ. تَكْفِيكَ نِعْمَتِي يَا بُولَسَ. تُوجَدُ سَبَابٌ عِدَّةٌ لِإِنْزَالِ اللَّهِ عَلَى شَعْبِهِ مَا يُعْرِفُ بِالْمَآسَاةِ، مِنْ دُونَ أَنْ تَكُونَ دَيْنُونَةٌ مُبَاشِرَةٌ لِلْخَطِيئَةِ – مَعَ أَنَّ الْحَالَ قَدْ يَكُونُ كَذَلِكَ أَحْيَانًا.

بَيَّنْتُ الْقَصِيدَ مِمَّا قَابَلَهُ يَسُوعُ وَتَلَامِيذُهُ هُوَ عَدَمُ التَّسْرُّعِ فِي الْحُكْمِ؛ وَإِنْ وُلِدَ هَذَا الرَّجُلُ أَعْمَى، فَالْسَّبَبُ هُوَ أَنَّهُ يَتَلَقَّى دَيْنُونَةَ اللَّهِ، أَوْ أَنَّ وَالِدَيْهِ يَتَلَقَّيَانِ دَيْنُونَةَ اللَّهِ، لَكِنَّ أَيُّ مِنَ الْحَالَتَيْنِ لَمْ تَكُنْ صَاحِبَةً. لِذَا أَقُولُ إِنَّكُمْ إِنْ سَأَلْتُمُونِي عَنْ سَبَبِ حَدُوثِ ذَلِكَ، فَالْجَوَابُ الصَّرِيحُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمَكِّنُنِي تَقْدِيرُهُ هُوَ "لَسْتُ أَدْرِي".

لَكِنَّ يَجِبُ أَنْ أُضِيفَ مَا يَلِي: الْإِفْتِرَاضُ الْأَسَاسِيُّ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِإِلَهٍ الْمَسِيحِيَّةِ وَبِإِلَهٍ الْعِنَايَةِ، هُوَ أَنَّهُ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ لَا تُوجَدُ مَآسٍ، لَا تُوجَدُ مَآسٍ لَدَى شَعْبِ اللَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ بِنَفْسِهِ وَعَدَّ بِأَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي هَذَا الْعَالَمِ – الْأَلَامِ وَالْمُعَانَاةِ وَالْمَآسِيِ كَافَّةً – تَدُومُ لِلْحِظَّةِ. وَأَنَّ اللَّهَ يَعْمَلُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ وَمِنْ خِلَالِهَا لِيُحَوِّلَهَا لِخَيْرِ الْأَشْخَاصِ

الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَهَا. لِيَا قَالِ الرَّسُولُ إِنَّ الْأَلَامَ وَالْمُعَانَاةَ وَالْمِحْنَ الَّتِي نَتَحَمَّلُهَا فِي هَذَا الْعَالَمِ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ نُقَارِنَهَا، وَلَا تَسْتَحِقُّ أَنْ نُفَرِّقَهَا بِالْأَمْجَادِ وَالْبَرَكَاتِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِشَعْبِهِ. فَالْمَأْسَاءُ فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ مُوقَّتَةٌ، وَلَيْسَتْ أَبَدًا دَائِمَةً.

الدكتور أ. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهشني الألم".